المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان، وعلمه ما لم يكن يعلم، وفضله على كثير من خلقه تفضيلا، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، ومن جاء رحمة للعالمين سيدنا محمد الذي أوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه، والسالكين سبيله، والداعين بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

إذا نظرنا إلى تراثنا العربي، وجدناه تراثًا حكائيًا (سرديًا) في جانب كبير منه، "فالعرب ليسوا بدعًا بين الشعوب، حيث الحكي ظاهرة متأصلة في الذات العربية، ومتجذرة

في تراثها القومي- عبر الزمان والمكان- بل لا نظن أن موروثًا حكائيًا شغل فضاءً سرديًا في تراث الشعوب قدر ما شغل الموروث الحكائي في فضاء التراث العربي بشقيه الشفاهي والكتابي[1]".

وفي تاريخ أدبنا العربي برز عدد كبير من كتاب "الخبر القصصي" أمثال: الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، والصولي (ت:٣٣٥هـ)، والقالي (ت:٣٥٦هـ)، والأصبهاني (ت: ٣٥٦هـ)٠٠٠، وفي مصر برز أحمد بن يوسف المصري، المعروف بابن الداية (ت: ٣٣٤هـ) وكتابه الشهير(المكافأة وحسن العقبى)٠ ثم يأتي مبدع آخر أفاد من جهود سابقيه، وتفوّق عليهم في صياغة "الخبر القصصي" وأسهم مساهمة جليلة في إثراء هذا الفن وتطوره ونضجه، هو القاضي"المحسن بن علي التنوخي"(ت:٣٨٤هـ) صاحب "الفرج بعد الشدة"، الذي أصبحت كتبه علامة مميزة في تاريخ هذا الفن٠

وتعد مؤلفات المحسن التنوخي من الأعمال المهمة في تاريخ الأدب العربي، وهي من المصنفات الجامعة التي تتضمن مختلف أجناس الكلام العربي وأنواعه وأنماطه، سواء أكانت هذه المصنفات جامعة عامة مثل "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"، أو جامعة خاصة مثل "الفرج بعد الشدة" و "المستجاد من فعلات الأجواد"٠

ويعد كتاب "الفرج بعد الشدة" كتابًا مميزًا في شكله وبنيته، تقوم فكرته الأساسية على رصد الشدائد والأزمات الحياتية التي آل أمرها إلى انفراج وحل، وصياغة هذه الفكرة في كتاب شامل ضخم يغلب عليه طابع السرد القصصي، جمع فيه القاصّ بين معظم أشكال القص السائدة في عصره من قص ديني وتاريخي واجتماعي وقص الغرائب والمغامرات، وبين الوحدة الموضوعية لهذه الأشكال القصصية المختلفة، مع الالتزام بمنهج التصنيف والتبويب، وصياغة ذلك كله في قالب سردي يحمل كثيرًا من سمات القص الفني؛ فقد كان "التنوخي" "يعي تمامًا، وبصورة لا تقبل اللبس أنه كان يقدم نمطًا مبتكرًا من الأخبار والحكايات لا نظير لها ولا شكل، فضلًا عن تأكيده أنه في ذلك إنما كان يخرج عن السنن المعروفة في الأخبار، ولا نظن أن تلك السنن التي خرج عليها التنوخي إلا

---

(١) راجع: د٠ محمد رجب النجار، التراث القصصي عند العرب، منشورات ذات السلاسل، الكويت،١٩٦٥ م ، ص ٦٠ ٠

البنية التقليدية للخبر التي شاعت قبله، وترسّخت في شتى حقول الأدب المعروفة منذ قرون"[1] ٠ ومن ثَم كان كتاب "الفرج بعد الشدة" يعبّر عن تطور فن الخبر القصصي في مرحلة مهمة من مراحل تطور الأدب العربي، وذلك لما يتميز به الكتاب من تفرد في البنية ووضوح في المنهج، فالكتاب يحوي عددًا ثريًا وضخمًا من الأخبار القصصية التي تعد إضافة ونموذجًا واضحًا لهذا الفن المتأصل في تراثنا الأدبي٠

ومن ثَم وجدت الباحثة ضالتها في هذا الكتاب في محاولة للكشف عن جانب مجهول من جوانب تراثنا النثري، في مرحلة مهمة من مراحل تطوره، وذلك من خلال العرض والتحليل والاستقصاء مع الإفادة من المناهج والدراسات النقدية المعاصرة، ولاسيما نظرية السرد القصصي وتقنياتها الحديثة٠

إن النص سابق على التنظير والفحص، وليس العكس، كما أن استخدام "التنوخي" لبعض تقنيات السرد يخضع في كثير من الأحيان لعفو الخاطر وحاجات السارد وغاياته٠ ولهذين السببين أجد أن مجال التحرك على أرضية هذا البحث ينبغي أن تكون مفتوحة، وذات طابع وصفي تحليلي، يبتعد قدر المستطاع عن تعسف المعايير المسبقة أو ليّ عنق النصوص٠

ومن ثَم كانت المنهجية التي تروم هذه الدراسة السير على هدي طروحاتها هي منهجية تقوم على المنهج الوصفي التحليلي في ضوء الاستعانة بطرائق التحليل السردي وأدواته الإجرائية، ومن ثَم كانت المزواجة بين طرائق التحليل السردي والمنهج الوصفي التحليلي ٠

تعرضت بعض **الدراسات السابقة** للمحسن التنوخي وأعماله، ومن هذه الدراسات:

(١) أطروحة جامعية لنيل درجة "الدكتوراه" مقدمة من الباحث :"محمد السيد قطب" تحت عنوان "بناء السرد والخبر في إبداع المحسن التنوخي، دراسة لغوية

---

[1] د٠عبدالله إبراهيم، السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م،ص ١٧٧.

أسلوبية"[١]، أقام الباحث دراسته على مادة كتاب "المستجاد من فعلات الأجواد" مع الاستعانة بشواهد قليلة من كتاب "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"، وكتاب "الفرج بعد الشدة"، وقد سعى الباحث من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن البنية اللغوية الأسلوبية للخبر القصصي بمستوييه: السرد (الخطاب)، والخبر (الحكاية)٠

(٢) دراسة للدكتور "محمد حسن عبد الله" بعنوان "الفرج بعد الشدة، انتقاء وترتيب ودراسة"[٢] اتبع فيها المؤلف المنهج التاريخي دونما إغفال للجانب الفني٠ تحدث فيها عن "المحسن التنوخي" وظروف نشأته، وتأثير العصر عليه وعلى الكتاب، وعن كيفية توارد النصوص داخل الكتاب، كما تحدث عن البناء الفني للقصة التراثية، وحاول من خلاله تطبيق معايير القصة القصيرة على نصوص الكتاب٠ وألحق ذلك بمختارات عديدة من قصص الكتاب وأخباره صنفها تصنيفًا جديدًا إلى : قصص فنية، وقصص اجتماعية، وقصص شعبية، وقصص سياسية، وقصص وعظية، دون بيان للأساس أو المعيار الذي أقام عليه هذا التصنيف، ألا يمكن أن يحدث تداخل بين تصنيفين؟ ألا يمكن ألا تكون القصة فنية واجتماعية أو سياسية أو شعبية٠٠٠ في آن واحد؟

(١) دارسة لـ" مصطفى عطية جمعة " تحت عنوان " أشكال السرد في القرن الرابع الهجري كتاب "الفرج بعد الشدة " للتنوخي نموذجًا"[٣]، وهي دراسة مطولة حاول الباحث من خلالها التعرف على بنية السرديات السائدة في القرن الرابع الهجري ،من خلال تطبيق الدراسة الشكلية على نصوص الكتاب، يقول :" أما الآليات الجديدة التي نرغب في التسلح بها ، ونحن ندرس تراثنا القصصي ، فتتمثل في

---

[١] سيد محمد السيد قطب، رسالة دكتوراه، كلية الألسن، جامعة عين شمس، ١٩٩٣م٠

[٢] مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، صدرت هذه الدراسة لأول مرة في صورة مقال بعنوان "الفرج بعد الشدة " للقاضي أبي على المحسن التنوخي، دراسة فنية تحليلية"في مجلة الفكر، مجلد ١٤، عدد ٢، ١٩٨٢م، ص ٣٥٩-٤١٤ ٠

[٣] د . مصطفى عطية جمعة ، أشكال السرد في القرن الرابع الهجري ("كتاب الفرج بعد الشدة "نموذجًا) ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٦م ٠

الدراسة الشكلية الموضوعية "[1]، ولكن الباحث يناقض هذا المهج الذي خطه لبحثه في مواضع أخرى من بحثه، خاصة في تلك المواضع التي يترجم فيها لمؤلف الكتاب محاولاً أن يظهر العلاقة بين حياة المؤلف وبين ما أنشأه من أدب، يقول: "من العبث أن ندرس الأدب بمعزل عن شخصيّة مؤلفه، أو بمعزل عن البيئة الاجتماعية والسياسيّة التي عاش فيها المؤلف، وخرج منها وإليها الكتاب."[2] ومن ثم خص الباحث فصلًا كاملًا من دراسته هذه لدراسة ألوان القص في الكتاب ، ومدى انعكاس العصر والبيئة والطبيعة الشخصيّة للمؤلف على قصص الكتاب.

وتوزعت هذه الدراسة في أربعة فصول ، تحدث الباحث في الفصل الأول عن الأشكال القصصية ، وتقاليدها الأدبية حتى القرن الرابع ، وأوجه تناص التنوخي معها . وفي الفصل الثاني : تحدث عن ألوان القص في الكتاب ، ومدى انعكاس العصر والبيئة والطبيعة الشخصيّة للمؤلف على قصص الكتاب، وقسم القص في الكتاب إلى : قص ديني ، وقص تاريخي ، وقص الغرائب، وقص التجربة الشخصية. وفي الفصل الثالث : تحدث الباحث عن بنية السرد من خلال دراسة أهم الظواهر الأسلوبية على مستوى الكلمة ممثلة في المحسنات البديعية الصوتية والمعنوية ، وكذلك ألفاظ البيئة . وعلى مستوى التركيب من خلال دراسة الاستفهام والشرط ، ومدى مساواة اللفظ والمعنى . أما الفصل الرابع: فقد خصه الباحث للحديث عن البناء السردي ، من خلال الدراسة السريعة والمقتضبة للزمن السردي والفضاء والشخصية، وإعداد القوائم الإحصائية لكل مبحث من هذه المباحث .

ويأتي بحثنا هذا الذي يحمل عنوان("الفرج بعد الشدة" دراسة في بنية السرد) امتدادًا للدراسات السابقة، في محاولة للاستفادة من مناهج السرد الحداثيّة في التعامل مع أحد الأعمال التراثية العربية المميزة، بطريقة تجمع بين حداثة المنهج وخصوصية العمل المدروس؛ إذ القصد ليس التطبيق الحرفي للإجراء النظري، ولكن الاستعانة به في تناول نقدي يقوم على منهجية محددة تسعى للكشف عن القيمة الفنية للكتاب،

---

[1] السابق نفسه، ص٧ .

[2] السابق نفسه، ص٢٣ .

وذلك من خلال فحص نسيج نصوص الكتاب للوصول إلى خصائص البنية السردية؛ فمادة الكتاب تقوم على بنية سردية قوامها أحداث وشخصيات وأمكنة وأزمنة، وهذه المادة – بصرف النظر عن وقوعها أو عدم وقوعها– تظهر في خطاب سردي له آليات مخصوصة، يتجلى فيها ويستوي نصًا إبداعيا مميزًا لصاحبه .

ومن ثَم تشكّلت هذه الدراسة من مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة :

تحدثت في التمهيد عن النشأة والتكوين الثقافي لصاحب " الفرج بعد الشدة " ومدى استفادته من أجواء القص الشائعة في عصره، ومصادر القص الشفاهية والكتابية التي استقى منها موارده، ثم تحدثت عن المنهج الذي اتبعه المؤلف في الجمع والترتيب، والمنطق الذي احتكم إليه في تسلسل القصص والأخبار وتتابعها داخل أبواب الكتاب المختلفة، ومنهجه كذلك في الرواية والإسناد، وتدقيق القول في مراتب التحمل، محافظًا على ذلك التقليد الذي بدأ دينيا، وارتبط برواية الحديث الشريف ، و تحدثت كذلك عن تعدد الروايات الذي يعد علامة مميزة لمنهج الرواية في الكتاب.

أمّا الفصل الأول : فقد جاء بعنوان " تشكيل الخطاب"، تحدثت فيه عن عناصر تشكيل الخطاب السردي ممثلة في الراوي والمروي والمروي له، ثم فصّلت الحديث عن الراوي باعتباره أهم عناصر التشكيل، فهو قائد سيمفونية العمل السردي، ولا يتجسد الحكي إلا من خلال ملفوظه، فتحدثت عن وجوده ودوره في جملة السند التي تتشكل من سلسلة من الرواة ، لكل واحد منهم مرتبته الزمنية الخاصة به في إطار الزمن الماضي الذي انتقلت خلاله حادثة الخبر عبر رحلتها – على افتراض أنها وقعت بالفعل– وصولًا إلى حاضر التشكيل الكتابي ، ثم عرّجت على الحديث عن أشكال الراوي وأنماط الرؤى من خلال الحديث عن وجود الراوي في متن الخبر .

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان " البناء الفني للحكاية " وقد تحدثت فيه عن ألوان القص داخل الكتاب، وعن البنية الفنية لهذه القصص من خلال رصد لونين من البنى الفنية هما: **البنية البسيطة** التي ترتكز على حدث محدد ينمو ويتطور صعودًا إلى ذروة التأزم والتعقيد ، ثم هبوطًا نحو الانفراج والحل ، وهذا النمط من البنية هو

الأكثر انتشارًا داخل الكتاب . **والبنيـة المركبـة** ، تلك التي تتألف فيها القصة من حكايات عدة تتداخل مع بعضها البعض لتصنع في النهاية بناءً كليًا متماسكًا ٠ وجاء ختام الفصل بالحديث عن جماليات الحل خصوصيته عند صاحب "الفرج بعد الشدة".

أمّا الفصل الثالث : فقد جاء تحت عنوان "الشخصيات .. بنية ونماذج "، ولما تتميز به شخصيات "الفرج بعد الشدة" من مرجعيّة تاريخيّة وخصوصيّة فنيّة، فقد قمت بتقسيم هذا الفصل إلى قسمين، خصصت القسم الأول للحديث عن البناء الفني للشخصية، وذلك من خلال الحديث عن البعد المرجعي الذي يعطي للشخصية وجودها في سياق الواقع والتاريخ، والبعد الفني الذي ينفث في الشخصية روحًا جديدة تسمو بها إلى عالم الفن، وذلك من خلال طريقتي : الوصف المباشر، والوصف غير المباشر ٠ أما القسم الثاني من هذا الفصل فقد خصصته للحديث عن نماذج الشخصيات التي تعرض لها التنوخي في سرده .

والفصل الرابع جاء للحديث عن "الزمان والمكان"، تحدثت فيه عن الزمان السردي من خلال تقنيتي: الترتيب والإيقاع ، وجاء الحديث عن الترتيب ممثلًا في: الزمن الطولي، والاسترجاع بنوعيه (خارجي ، وداخلي)، والاستباق بنوعيه (خارجي ، وداخلي) . أما تقنية الإيقاع فجاءت ممثلة في : الوقفة ، والمشهد ، والتلخيص ، والحذف .

وجاء الحديث عن المكان السردي موزعًا بين أبعاد المكان وأنماطه، أبعاد المكان ممثلة في البعد النفسي، والبعد العجائبي، والبعد الجغرافي . وأنماط المكان ممثلة في الأماكن المغلقة، والأماكن المفتوحة .

أمّا الفصل الخامس : فقد جاء تحت عنوان : " لغة القص وجمالياته " تحدثت فيه عن مستويات الخطاب السردي من خلال الحديث عن الخصائص اللغوية لصيغ السرد ، والوصف ، والحوار . ثم تحدثت عن مستويات اللغة التي تميز بها "كتاب الفرج بعد الشدة "٠

وهذه الدراسة لا تدّعي أنها ألمّت بكل شيء جاء في الكتاب ، فثراء الكتاب وغناه يحول دون الإلمام بكل جوانبه، فمازالت هناك جوانب كثيرة داخل الكتاب جديرة بالدراسة والبحث، ولكن هذه الدراسة محاولة جادة لدراسة بعض جوانب الكتاب، حاولت خلالها أن أصيب الحق في معظم وجوهه، لتكون جزءًا من كل، يتوجه نحو مناطق الحيوية في تراثنا السردي، من خلال دراسة رائد من رواد الخبر القصصي في تراثنا . وأعتذر عما قد يشوب البحث من خطأ أو تقصير، على الرغم من كبير الجهد، وصادق العناية، وشديد المعاناة في أن تخرج هذه الدراسة في صورة تعبر عن شغف الباحثة بهذا الشأن العلمي، وحسبي أنني لم أبخل بجهد، ولم أضن بسعي نحو أفضل صورة ممكنة لبحثي هذا، ولكن جهدي هو جهد البشر بما جبلوا عليه من نقص، فإن حققت ما أمّلت في تحقيقه فمن الله تعالى، وإلا ففي اختلاف زوايا النظر، وفي النقص البشري متسع .

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه بموفور الشكر وجزيل الامتنان لكل من ساعدني في أن يرى هذا البحث النور، وأن يتم على هذه الصورة، وأخص بالشكر أستاذي الأستاذ الدكتور /**السيد فضل**، وإنني لمدينة بالكثير له، لملاحظاته المنهجية الثمينة، ولفضله العميم عليّ مذ كنت طالبة ثم باحثة، كما لا يسعني إلا أن أرفع تحية إجلال وتقدير حارة لكل من: الأستاذ الدكتور/**أحمد درويش**، أستاذ النقد الأدبي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وأستاذي الأستاذ الدكتور/ **نبيل نوفل**، أستاذ النقد الأدبي بكلية الآداب بجامعة بنها، لتفضلهما بقبول مناقشة بحثي هذا ليرتفع بفضل ملاحظاتهما وعظيم توجيهاتهما، فجزاهما الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء، كما لا يسعني إلا أن أتوجه بموفور الشكر للعاملين بمركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية بالمملكة العربية السعودية لما قدّموه لي من وافر المصادر والمراجع التي أفدت منها في بحثي هذا، أما الشكر الأوفى فهو لزوجي الذي قدم لي كبير العون، وشديد المؤازرة، وعظيم التحفيز والتشجيع، فكان هذا البحث بعضًا من دأبه وإخلاصه.

والله تعالى أسأل التوفيق والسداد، ونافع العلم ، وطيب العمل، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وخدمة لأمتنا الخالدة الأصيلة ولتراثها العظيم.

والحمد لله رب العالمين.

الباحثة